«الوطن القتيل يتمدد إلى بلاد العرب»

النقيب فادي غنطوس

يعلمنا التاريخ أننا لا نتعلم من دروس التاريخ» (هيغل)
«الناس في السكينة سواء فإن جاءت المحن تباينوا» (إبن خلدون)
في البدء ظننا أنها «حرب السنتين»...
أربعون مضت ليتبين لنا يقيناً أنها حرب «المائة عام»!
هي حرب أهلية بدأت ونحن نلامس سن الرشد وإمتدت إلى الوطن الأكبر ونحن على مشارف الستين.
هي حروب أهلية إنطلقت شرارتها من زاروب في «عين الرمانة» ليمتد لهيبها إلى بلاد الشام، لتستقر مؤقتاً على ابواب «باب المندب» محققة قول الإمام الشافعي «ولا بد من صنعاء وإن طال السفر».
توهمنا ونحن مراهقون ان لبنان وحده هو أرض «الحرب الأهلية العربية» وأنه حصراً هو بلد الطائفية والطوائف لنكتشف متأخرين ان بلاد العرب هي بلاد المذهبية والمذاهب.
فيما مضى كان مصطلح «البننة» موازياً «للبلقنة» أي تقسيم الدول وتفتيتها، اليوم تطرح «اللبننة كحل سياسي» بمعنى تقاسم «ملوك الطوائف والمذاهب» الفاسدين للنفوذ والسلطة في بلد عربي ما.
كنا نقول «ان حرية لبنان من حرية سوريا» ولا تغيير حقيقياً ومستداماً في لبنان بدون تغيير فعلي في سوريا.
تبيَّن لنا ان تدمير «فكرة لبنان» أدى إلى تدمير «فكر العروبة» أصلاً.
والمؤسف أنه هناك، وبين الزمنين «زمن الحرية» و«زمن التدمير»، من إبتدع «زمن النأي بالنفس»، كأننا لم نعد وطناً له موقف ودور بل ساحة، لكنها ساحة «الأرض الخلاء» No man's land.
أربعون عاماً مضت لنشهد أننا لم نخرج من الحرب الأهلية، بل دخلنا في محظور الحروب الأهلية المتتالية، فالحروب ليست دائماً سلاحاً وقتلاً وتشريداً وتهجيراً، إذ للحروب مسالك متعددة، وقد تصبح «نمط حياة وعيش» وإلا ما هي حالتنا اليوم؟
الحديث عن حرب أهلية هو أولاً وأخيراً حديث عن تدمير مقومات وطن وبلاد.
وهذا التدمير قد لا يكون تدميراً عنفياً بالسلاح، وقد تكون تجلياته في تغيير النسيج الإجتماعي، وإعتماد سياسة اللاقانون والمحميات، وتكريس نهج الفساد والافساد وتوزيع المغانم خارج المحاسبة والمساءلة والتخلي عن القيام بدور ما... في ظل غياب تام لما تسمى «بالقوى الحية» أو المجتمع المدني.
المؤلم في كل ذلك أننا إرتضينا هذا المصير، وإن كرهناه.
كان اسلافنا من الكواكبي وجورج أنطونيوس وعلي عبدالرازق يعتقدون أن نهاية الإنحطاط تبدأ مع «سقوط الدولة العثمانية» ولم يدروا ما الذي سيواجهه أحفادهم.
هزائمنا المتتالية لم تعلمنا شيئاً، فالنخب العربية الحاكمة أدخلت شعوبنا في المتاهات.... مستبدلة الحرب الوطنية لتحرير فلسطين بحروب الردة الأهلية التي داخلها مفقود والخروج منها شبه مستحيل.
هذه النخب العربية الحاكمة أنتجت ما يقود هذا الشرق المتنوع، العظيم بتاريخه البائس في حاضره، إلى تصحر.
هذه النخب الحاكمة أنتجت جحيماً عربياً حيث «لا عشب ليطلع ربيع وحيث لا أمل لتفتح كوّة ضوء».
لكن ما العمل؟
«هل يمكن العيش بدون اسباب وجيهة لليأس؟».
نحن نعلم وبدون أوهام أنه ليس في إنتظارنا سوى الحضيض!
ونعلم أيضاً أننا نعيش زمن «إستحالة العيش» ووسيلتنا الوحيدة كي نتحمل هي أن لا نرى، نغمض أعيننا وننسى، نعيش في النسيان خوفاً من «ذاكرة العار» التي تحاصرونا من كل الجهات...
تعبنا من الهزيمة وأنهكنا الموت... لكن هل نستلم؟
ألن تأتي ساعة تعلن فيها «الشعوب القتيلة» أنها لا تريد أن تكون الشعوب القتيلة في الوطن العربي القتيل.
لا خيار أمامنا... فالاستسلام أمام المغول الجدد غير وارد.
واجب العقل ان يواجه الحماقة حتى الرمق الأخير،
لن نستسلم... لن نستسلم... اليأس خيانة. ليس لنا سوى أن نبدأ....